أحلامُ الخلفاء العبّاسيّين
التّرقُّبُ والمأساةُ في تاريخِ الطّبريّ

يوهان فيستسيْن*
ترجمة: عبد الكاظم عجاج حميد
مراجعة: فـالح حـسن

المُلخّص:
بناءً على تحليل ثلاثة أحلام لثلاثة خلفاء من بني العبّاس، وهم المهديّ والرّشيد والأمين، تُحاجِج هذه الورقةُ في أنّ الأحلام في «تاريخ الرّسل والملوك» تُمسرِحُ عرضَ الطّبريّ للأحداث، وتُضفي عنصرَ التّرقُّب عليها.

الكلمات المفتاحيّة: الأحلام، الطّبريّ، التّاريخ العربيّ.

بنو العبّاس والأحلام: دعاية أم أدب؟

هنـاك ارتباط كبير بين الخلفاء العبّاسـيّين والأحـلام. فأوّلًا وقبل كلّ شيء، أَوْلى الخلفاء العبّاسـيّون الأحـلامَ وتأويلَها اهتمامًا كبيرًا، وصُنِّفت برعايتهم ثلاثة نصوص أساسـيّة في تعبـير الأحلام. فأوّل كتاب عربيّ على الإطلاق وُضعَ في تعبير الأحلام، وهو نصّ وردَ ذكره في المصادر القديمة لكنّه لم يصل إلينا، وقيل إنّ مؤلّفه مُعبِّر أحلام الخليفة المهديّ[1].

*** [جامعة جروننجن، هولندا]. [ملاحظة: الحواشي النّجميّة بقلم المترجم، ولذلك حُصر محتواها بين قوسين معقوفين؛ تمييزًا لها عن هوامش الباحث ذوات الأرقام].**

(١) «الدّستور في التّعبير»، الكرمانيّ، يُنظَر: «الحُلم في المجتمعات الإسلاميّة في القرون الوسطى» توفيق فؤاد، و «الحُلم والمجتمعات الإسلاميّة»، تحرير: جي. أي. فون جرونيباوم وروجر كالون، مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٦٦: ٣٥٧، «العرافة العربيّة، دراسات دينيّة واجتماعيّة وفولكلوريّة حول البيئة الأصليّة للإسلام»، توفيق فهد، ليدن، بريل، ١٩٦٦: ٣١٦. من المحتمل جدًّا أنّ كتاب الكرمانيّ كان بتكليف من الخليفة المهديّ.

وبعد قرن من الزّمان تُرجِم إلى العربيّة أشهرُ كتاب في الأحلام، يعود إلى المرحلة الكلاسيكيّة من العصر القديم، وهو كتاب أرطميدُورس «تعبير الرّؤيا»* في إطار حركة ترجمة التّراث اليونانيّ التي رعاها العبّاسيّون، على الأرجح، بأوامرَ من المأمون[٢]. وأقدم الكتب العربيّة في تفسير الأحلام، التي وصلت إلينا، وُضِع بتكليفٍ من الخليفة العبّاسيّ القادر باللّه، وأُهدي إليه، «وحمل عنوانًا بارعًا»[٣]: «القادريّ في التّعبير»**.

ثانيًا، نجد في كتب التّاريخ العربيّ وغيرها عددًا كبيرًا من الأحلام التي رآها خلفاء عبّاسيّون. وزُعِمَ أنّ موضوعات الأحلام النّبوئيّة لا بدّ أنّها تُبيّن قسمًا كبيرًا من تصوّر بني العبّاس عن أنفسهم، فقد سعى العبّاسيّون إلى تمييز أنفسهم عن الأمويّين، حين عدّوا أنّ بني أميّة لم يكونوا سوى حُكّامٍ دنيا، سَطَوا على حكم أمّة المسلمين، بغير رضًى من اللّه، أمّا هم (العبّاسيّون) فإنّهم خلفاء النّبيّ محمّد [ﷺ] وورثتَه وورثة الأنبياء من قَبْله. ولإثبات أنّهم كانوا ورثة الأنبياء- حتّى بعد اختتام النّبوّة الحقيقيّة بموت النّبيّ [ﷺ]- كان على العبّاسيّين أن يُظهِروا أنّ فيهم بعضَ صفات الأنبياء.

كان يُنظَر إلى الأحلام على أنّها شكل ثانويّ من النّبوّة[٤]، فكانت أحلام الخلفاء العبّاسيّين مشابهةً لأحلام النّبيّ محمّد [ﷺ] أو الأنبياء مثل يوسفَ وإبراهيمَ، وأنّها علامة على أنّ بعض النّور النّبويّ قد انتقل إلى الأسرة العبّاسيّة. وعلى حدّ قول توفيق فهد، وهو أحد كبار المُختصّين بدراسة الأحلام في الثّقافة العربيّة: «إنّ تاريخ التّناحر على الحكم بين العبّاسيّين والأمويّين مشهور، على أنّه فقط في الأحلام المُختَلَقة بعناية، التي تُفسِّر من طرف خفيّ الحياةَ اليوميّة، تظهر الحاجة النّفسيّة الملحّة لدى الأمويّين لتقمّص النّبوّة، ونيل الرّضى الإلهيّ، والإلهام الذي يؤكّد أحقّيّتهم بالحكم وتقدّمهم على مُدّعي الخلافة من غيرهم »[٥].

إنّ القول بأنّ تصوير الخلفاء العبّاسيّين وهم يَرون مناماتٍ كان فعلًا مُمنهجًا يرمون من ورائه إلى تمييز أنفسهم عن الأمويّين، لهو أمر تُبيِّنه مثلًا حقيقة أنّ الطّبريّ لم يُورِد في تاريخه عن الرّسل والملوك حُلمًا واحدًا نُقِل عن خليفة أمويّ، في حين أنّه دوَّن سبعة عشر حُلمًا وردت في حكم

* [صدرت الطّبعة العربيّة الأولى المُحقّقة من الكتاب بعنوان: «تعبير الرّؤيا»، أرطميدُورس الإفسِيّ: نقله إلى العربيّة حُنَين بن إسحق، حقّقه وصحّحَ نصوصَه وقدّم له: د. عبد المنعم الحفني، دار الرّشاد، القاهرة، ١٤١١هـ/١٩٩١م- المترجم].

(٢) «الحُلم في المجتمعات الإسلاميّة في القرون الوسطى»: ٣٥٩.

(٣) الدّيْنَوَريّ، «القادريّ في التّعبير». يُنظَر: فهد، الحُلم، ص٣٥٩.

**[صدرت الطّبعة العربيّة المُحقّقة الأولى من الكتاب بعنوان: «كتاب التّعبير في الرّؤيا، أو القادريّ في التّعبير»، تصنيف الشّيخ العلّامة أبي سعد نصر بن يعقوبَ بن إبراهيمَ الدّيْنَوَريّ، دراسة وتحقيق: د. فهمي سعد، منشورات عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٧م- المترجم].

(٤) يُنظَر على سبيل المثال: «المقدّمة: مقدّمة في التّاريخ»، ابن خلدون، ترجمة فرانز روزنتال، نيويورك: بانثيون، ١٩٥٨: ١١٠.

(٥) «الحُلم في المجتمعات الإسلاميّة في القرون الوسطى»: ٣٥٢.

العبّاسيّين، منها خمسة عشر رآها خلفاء عبّاسيّون بأنفسهم[٦]».

في كتابه (الثّورة الإسلاميّة والذّاكرة التّاريخيّة) الصّادر سنة ١٩٨٦، وهو دراسة عن الدّعاية العبّاسيّة، يتعامل جاكوب لاسنر مع روايات عن أحلام الخلفاء العبّاسيّين[٧]، ويُحاجج لاسنر بأنّ الرّوايات التي تتحدّث عن حُلم للخليفة قد اختلقها إمّا منافحون يعملون بخدمة ذاك الخليفة، أو الذي يعقبه في الحكم. أو مَن هم في خدمة ذلك الخليفة أو خليفته المباشر. واختلق علماءُ دين مأجورون هذه الأحلام لأغراض الدّعاية السّياسيّة، ولإقناع النّاس بشرعيّة سياسات البيت الحاكم.

يطرح لاسنر أيضًا فرضيّةً عن الطّريقة التي وَجدتْ بها رواياتُ الأحلام وغيرها من موادّ الدّعاية العبّاسيّة طريقَها إلى المصادر العربيّة الكلاسيكيّة التي نقرؤها اليوم. إنّ مثل هذه الرّوايات عن الخلفاء العبّاسيّين، وفقًا لـ لاسنر، اشتغلت في الأصل بوصفها حكاياتٍ متناثرةً رواها مُروِّجون لجماعات مختلفة في الإمبراطوريّة. استخدم المُروِّجون في استراتيجيّتهم الدّعائيّة إشاراتٍ بارعةً إلى السّياق السّياسيّ الرّاهن بشكل مباشر ودقيق، وكانت من البراعة بحيث لا يفهمها إلّا المُعاصر لها والمُطَّلِع على أحداثها. كانت الأجيال اللّاحقة تفتقر إلى المعرفة الكافية لذلك السّياق السّياسيّ المُحدّد، ولم تكن قادرةً على فكّ رموز هذه الإشارات. وبعبارات لاسنر نفسه: «عمومًا، كان المُدافعون عن العبّاسيّين في زمان العصور الوسطى يُخفون مقاصدهم بنصوص مُشفَّرة، وكانت- كما جرت العادة- مفرطةً في الغموض. ولفهم النّصّ، كان القارئ المعاصر مُضطرًّا لالتقاط أدلّة مختلفة عن الأحداث التي نُسجِت بدقّة بهيئة سرد. وعليه لا بدّ من تشخيص المعنى الأكبر الذي تهدف إليه، وبدون ذلك فإنّ الرّواية تبدو مُراوِغةً إن لم تكن متناقِضَة... ومن الواضح تمامًا، أنّ المؤلّف اعتمد على قدرة القارئ على التّعرّف على الدّلالات المتجاورة الدّقيقة، ومن ثمّ استخلاص استنتاجات منطقيّة حين لا يبدو أيّ منها مُمكنًا. لكن في وقت نشأت فيه الذّكريات الفيلولوجيّة والتّاريخيّة في الخفاء وازدادت خفاءً، فلا مناص من فقدان التّرابط المنطقيّ بينها. الذّكريات اللّغويّة والتّاريخيّة شاحبة، ولا تزال باهتةً أكثر، لذا فقد ضاعت هذه الرّوابط المنطقيّة»[٨].

في الوقت الذي أُلّفت فيه مُصنَّفات تاريخيّة جليلة مثل تاريخ الطّبريّ، أصبحت هذه الأحلام وغيرها من الموادّ الدّعائيّة العبّاسيّة المُبكّرة، غير مفهومة تمامًا. ومع ذلك، على الرّغم من أنّهم لم يفهموها، فإنّ الطّبريّ وأمثاله أوردوا مثل هذه

(٦) يُنظَر أيضًا: «الأحلام في الطّبريّ: الحسين، جُبَيْر»، يوهان فيستسْين وأليكس ج. دي فوغت، ٢٠٠٧: ٢٢٣-٢٢٧.

(٧) «الثّورة الإسلاميّة والذّاكرة التّاريخيّة: تحقيق في فنّ التّبريرات العبّاسيّة»، جاكوب لاسنر، نيو هافن: الجمعيّة الشّرقيّة الأمريكيّة، ١٩٨٦: ١٩-٢٤.

(٨) «الثّورة الإسلاميّة والذّاكرة التّاريخيّة: تحقيق في فنّ التّبريرات العبّاسيّة»: ٣٢.

الأحلام بالنّحو نفسه. ووفقًا لـ لاسنر، فإنّ هذا الأمر يُردّ إلى النّزوع إلى الكمال في العمل التّاريخي، والانصياع إلى احترام الماضي.

يستنتج لاسنر أنّ الأحلام وموادّ الدّعاية السّياسيّة الأخرى ليس لها وظيفة ذات مغزى في كتب التّاريخ المذكورة فيها، لأنّ كاتبها يلتزم ببعض الافتراضات المُحدّدة سلفًا حول طبيعة هذه الرّؤى. يعدّ لاسنر الاعمال التّاريخيّة، مثل تاريخ الطّبريّ، جمعًا عشوائيًّا لثُلَمٍ من الماضي غير مُنسّقة، جُمعتْ معًا بواسطة فِرق الخطباء والدّعاة دون تمعّن أو تمحيص. «إنّ أشهر المُؤلّفات التي تُوثّق تاريخ العبّاسيّين المُبكّر هي أعمال مُركّبة لا تحمل الطّابع الواضح لمؤلّف موثوق. جُمِعتْ هذه النّصوص من روايات مأخوذة من مؤلّفات سابقة، وتُعطي الانطباع بأنّها جُمِعتْ بواسطة مؤلّف يُساعده عددٌ من المعاونين[٩]...» قد تتمّ إعادة صياغة عبارات عن النّصوص الأصيلة أو حتّى إعادة كتابتها بطريقة ساذجة بأيدي الأجيال اللّاحقة، وبدون استخدام نظام منهجيّ أو بذل جهد في مراجعة الموادّ القديمة وإخضاعها لتحليل أدبيّ أو تاريخيّ شامل[١٠].

توصّل لاسنر بشكل عامّ إلى استنتاج مفاده أنّ الأحلام العبّاسيّة غير مفهومة، ولا معنى لها، وبلا وظيفة في سياق النّصّ الذي تَرِد فيه أو التّاريخ التي تمّ دمجها فيه. ومن أجل فهم هذه الأحلام، يقول لاسنر، يجب على المرء أن يبحث في وظيفتها الدّعائيّة الأصليّة، من خلال وضعها في سياقها التّاريخيّ الأصليّ المزعوم، وهو الوضع السّياسيّ المُحدّد الذي أنشأه أهل الدّعاية عن العبّاسيّين. قد تكون فرضيّة لاسنر القائلة بأنّ أحلام الخلفاء العبّاسيّين لها وظيفة دعائيّة هي فرضيّة صحيحة[١١]. ومع ذلك، هناك إشكالان آخران في أطروحته، وهما اقتراحه لتحليل الأحلام في إطارها التّاريخيّ الأصليّ، وافتراضه بأنّ الأحلام لا معنى لها في سياقها الحاليّ. من أجل دراسة الأحلام في إطارها التّاريخيّ الأصليّ المُفترض، يتعيّن على المرء إعادة صياغتها أوّلًا. ومع ذلك، فإنّ إعادة الصّياغة أو البناء هذه مُعقّدة للغاية، إن لم تكن مُستحيلة، حيث يجب أن تستند إلى تلك المجموعات نفسها التي تُظهر، وفقًا إلى لاسنر نفسه، الافتقار التّامّ لفهم الماضي الذي يُشيرون إليه.

بدلًا من محاولة إعادة إنشاء صياغة أصيلة قائمة على الافتراض، أقترحُ اتّباعَ طريقة أبسط بكثير: دراسة هذه الأحلام في سياقها الحاليّ. وللقيام بذلك، أعتزمُ أيضًا دحض الجزء الإشكاليّ الثّاني من أطروحة لاسنر، أي أنّ هذه الأحلام ليست لها وظيفة ذات مغزى في السّياق الحاليّ، ولإثبات أنّ الأحلام هي في الواقع الجزء الذي يتمّ بناء النّصوص عليه والتي تظهر فيه، سأركّز على دورها النّصّيّ أو السّرديّ، بدلًا من وظيفتها

(٩) المصدر نفسه:٢٥.

(١٠) «الثّورة الإسلاميّة والذّاكرة التّاريخيّة: تحقيق في فنّ التّبريرات العبّاسيّة»: ٢٤.

(١١) للحصول على مثال آخر للاستخدام السّياسيّ للحُلم العبّاسيّ، يُنظَر: «الفكر اليونانيّ، الثّقافة العربيّة: حركة التّرجمة اليونانيّة العربيّة في بغداد والمجتمع العبّاسيّ المُبكّر (القرنان الثّاني والرّابع والثّامن والعاشر)»، ديميتري جوتاس، لندن: روتليدج، ١٩٩٨: ٩٥-١٠٤.

الدّعائيّة[١٢]. وفي هذه الورقة سأُبيّن كيف أنّ هذه الرّؤى الثّلاثة للخلفاء العبّاسيّين تُضيف التّرقّبَ والمأساة إلى نصّ كتاب الطّبريّ «تاريخ الرّسل والملوك»[١٣]. هذه الأحلام يمكن أن تكون لديها هذه الوظيفة في الأدب العربيّ على قول جيوفاني كانوفا في دراسة له عن دورها في الملاحم العربيّة الشّعبيّة حيث يقول إنّ الأحلام تُشكّل: «أحد الموضوعات المُفضّلة للشّاعر الملحميّ (الشّاعر)؛ إنّه يرغب في إشراك مُستمعيه في استحضار ظاهرة ذات مخطّطات بائسة ورائعة، وفي نفس الوقت، يفسّر شعورًا عميق الجذور بالعجز في مواجهة حتميّة مصير الإنسان. تأثير القدر على الشّؤون الإنسانيّة سيفقد الكثير من الدّراما... [١٤]. القدر لا يضرب البطل الضّحيّة بلا هوادة فحسب، بل يسخر منه، كاشفًا له من خلال الحُلم كيف سيكون مصيره، وكأنّه يستمتع بجهوده العبثيّة للهروب منه، هذا التّمرّد المجنون. . . يرفع التّوتّر الملحميّ للسّرد إلى أقصى حدّ»[١٥].

يمكن للمرء أن يعترض على أنّ ملاحظات كانوفا حول وظيفة الأحلام في الملاحم الشّعبيّة لا تنطبق على تاريخ الطّبريّ، لأنّ هذه الملاحم هي

(١٢) أفضل مثال على المقاربة الأدبيّة للتّاريخ في العصر العبّاسيّ الأوّل هو: الطّيب الحبريّ، إعادة تفسير التّاريخ الإسلاميّ: هارون الرّشيد وسرد الخلافة العبّاسيّة، كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٩. الحبريّ في أحلام العبّاسيّين: حُلم الرّشيد بالأرض الحمراء ص ٥٤-٥٦. حُلم زبيدة، ص ٦٢- ٦٣؛ أحلام المأمون، ص ١١٠-١١١. يُنظَر أيضًا: «شخصيّات الخلفاء بين التّاريخ والخيال: الوليد بن يزيدَ والأمين في تمثيل التّاريخ العربيّ للعصر العبّاسيّ»، ماتياس فوغت، فورتسبورغ، ٢٠٠٦: ٢٦٤-٢٧٦. تمّ العثور على دراسة الوظيفة السّرديّة للأحلام في سورة يوسفَ وسيرة ابن إسحاقَ في كتاب نصر حامد أبو زيد، «الحُلم في النّصوص العربيّة: حافز سرديّ أم وحدة دلاليّة؟»، فوسول ١٣ (١٩٩٤): ١٠٥-١٢٨. تُنظَر أيضًا: أطروحة «حفنة من الأرض الحمراء»: أحلام الحُكّام في كتاب الطّبريّ (تاريخ الرّسل والملوك)»، جامعة أمستردام، ٢٠٠٩.

(١٣) في مقال نُشر سنة ١٩٢٨ وأُعيد طبعه سنة ١٩٨١، يقول رودي باريت بأنّ المأساة لا توجد إلّا بالمصادفة في النّصوص العربيّة قبل العصر الحديث: رودي باريت، كتابات عن الإسلام: الرّواية الشّعبيّة- سؤال المرأة- تحريم الصّور «، تحرير جوزيف فان إس، شتوتغارت: كولهامر، ١٩٨١، ص ٩٥-١١١، أُعيد طبع مقال في Zeitschrift fur Semitics ٧ (١٩٢٨): ٢٤٧-٢٥٢؛ ٨ (١٩٢٩): ص. ١٧-٢٨). ومع ذلك، فيما يتعلّق بالمأساة في تأريخ الطّبريّ، يُنظَر: بوعز شوشان، شاعريّة التّاريخ الإسلاميّ: تفكيك تاريخ الطّبريّ، ليدن: بريل، ٢٠٠٤ ص ١٠١-١. ٢٣٣-٢٥٢، في الوظيفة المأساويّة للأحلام في التّاريخ اليونانيّ يُنظَر: إيرين جيه إي دي يونج، «هيرودوت وحُلم الكامبيز (التّاريخ ٣. ٣٠، ٦١-٦٥)،» في: أرض الأحلام: الدّراسات اليونانيّة واللّاتينيّة في شرف A. H. M. كيسيل، أد. أ. لاردينوي، ليدن: بريل، ٢٠٠٦، ص ٣-١٦.

(١٤) جيوفاني كانوفا، «وظيفة الحُلم في الشّعر الملحميّ الهلاليّ»، دفاتر الدّراسات العربيّة ٢ (١٩٨٤): ١٠٧: «أحد الموضوعات المُفضّلة للشّاعر الملحميّ: يريد إشراك جمهوره عن طريق استحضار ظاهرة غامضة ورائعة، وفي الوقت نفسه، يُعطي صوتًا لشعور عميق الجذور بالعجز تجاه حتميّة مصير الإنسان».

(١٥) كانوفا، فونزيوني، ص. ١١٢: «بدون الحُلم فإنّ أثر القدر على حياة الإنسان يفقد جزءًا كبيرًا من المأساة. المصير لا يصدم البطل الضّحيّة فحسب، بل يسخر منه أيضًا، ويُعلن له عن طريق الحُلم ماذا سيكون مصيره، من أجل الاستمتاع بجهوده العبثيّة لإنقاذ نفسه منه. وهذا الاستنزاف الأصمّ، هذا الأسد المتمرّد المجنون، هو الذي يرفع إلى أعلى درجات التّوتر الملحمي في السّرد».

نصــوص سرديّة بالمعنى الكامــل للكلمة، في حين أنّ تاريخ الطّبريّ قد لا يبدو أنّه سرد مســتمرّ. في الواقع، وللوهلة الأولى- فإنّ لاســنر لا بدّ أن يكون قــد أخطأ في هذا- يبدو أنّ نصّ الطّبريّ ليس أكثر مــن قائمة مُرتّبــة ترتيبًا زمنيًّا لأجــزاء من أعمال كتبها آخرون، قائمة بالأجزاء التي لا تُشكّل كُلًّا ذا مغزى والذي يُشــكّل الجزء الكامل للرّوايات. هذا يعني أنّه قبل أن نواصــل، بنا حاجة أوّلًا إلى إلقاء نظــرة فاحصة على كيفيّة بنــاء الأحداث في تاريخ الطّبريّ.

بناء تاريخ الطّبريّ

يتنــاول الجــزء الأكــبر مــن تاريــخ الطّــبريّ موضوعاتٍ تخــصّ تاريخًا عالميًّــا، وهو أكثر من أربعة أخمــاس النّصّ بأكمله من تاريخ الإســلام منذ بداية التّاريــخ الهجريّ. لا يحتوي هذا الجزء من النّصّ على الشّــكل الظّاهريّ للسّرد المُســتمرّ، ولكنّه على شكل تسلسل سنويّ للأحداث، ويتعامل عنــد ذكر كلّ واقعــة ما مع حدث واحــد، وقد تمّ تصنيف ذكر الأحداث وفقًا للسّــنة التي وقع فيها هــذا الحــدث. ويبــدأ في العادة بكلمــات مثل: «في هذه السّــنة، حدث كذا وكذا»، مع معظم الرّوايات المتكرّرة: «في هذه السّــنة، تُوفِّي فلان وفلان/ سار إلى الحجّ / كان حاكم تلك الولاية».

في التّدوين الأكثر تعقيدًا، فإنّ المؤرّخ الرّئيس، الذي يُدوّن هذه الأحداث، يقتبس عن رواة ثانويّين: فبعد ذِكْر خبر الحــدث في بداية التّدوين، يتضمّن واحدًا أو أكثر من الأخبار، أو رواية شهود العيان، وكلّ منها يسبقه إسناد. أمّا في حالة تدوين الأخبار الخاصّة بوفــاة الخليفة، فإنّــه يعتمد على تدوين المعلومات بالكيفيّة نفســها الموجــودة في قاموس السّــيرة الذّاتيّــة[١٦]. هذه المداخــل، التي يمكن أن نُســمّيها «مداخــل النّعي (ســجلّات الوَفَيَات)، لا تحتوي عــلى الأخبار التــي تتناول وفــاة الخليفة فحســب، بل تُقــدّم أيضًا رواياتٍ أخــرى تُضيف معلوماتٍ عن المراحل السّــابقة في حيــاة الخليفة وعن شــخصيّته، وتوفّر من ثَمّ اللّبنات الأساســيّة لِما يمكن القول عنه أنّه ســيرة ذاتيّة شــبه كاملة. والمُدوّن الأصليّ نفســه لا يقتــصر- بصفة عامّة- على سرد الأحداث التي يتكوّن منها الفهرس فقط، بل يسرد الأحداث ويقتبس تقارير شــهود العيان، لكنّــه يذكــر كلّ الرّوايــات أو التّقاريــر المختلفة المُضمّنــة لحــدث واحــد دون أن يُــصرّح برأي في مصداقيّة التّقارير التي يقتبســها، حتّى لو كانت تتعارض مع بعضها البعض.

يُعــرّف النّــصّ السّرديّ بأنّ موضوعه يتضمّن سلسلة من الأحداث المنطقيّة التي تنشأ فيما بينها علاقــات مرتّبــه زمنيًّــا[١٧]. أمّا في كتــاب الطّبريّ فيبــدو-لأوّل وهلة- أنّه يتمّ إنشــاء علاقات مرتّبة زمنيًّــا، وقائمة بالأحــداث التي تُذكَرُ في تسلســل زمنــيّ، ولا يقوم الــرّاوي بإنشــاء علاقات أخرى بينهــا. نظرًا لأنّ الرّاوي الأســاسيّ للتّاريخ يكتفي بذكر الأحداث بشــكل جامد لا مرونة فيه، دون أن

(١٦) مايكل كوبرسون، السّيرة الذّاتيّة العربيّة الكلاسيكيّة: ورثة الأنبياء في عصر المأمون، كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ٢٠٠٠، ص ٢٠-٢٣.

(١٧) ميكي بال، علم السّرد: مقدّمة لنظريّة السّرد، تورنتو: مطبعة جامعة تورنتو، ١٩٩٧، ص. ٥.

يشرح أبدًا ما إذا كانت هذه الأحداث (أو الأحاديث أو الرّوايات المختلفة) مترابطة، أو يُوضّح كيفيّة ارتباطها، فإنّه يأخذ دور المُترجِم غير المُبدع، ولِمَيْلِ معظم القرّاء إلى التّعرّف على الرّاوي الأساسيّ لنصٍّ ما مع مؤلّفه، بدا الطّبريُّ كجامعٍ غيرِ مُبدعٍ للأحداث. وبعبارة أخرى، فهو من خلال تقديمه لتاريخه بشكل كرونولوجيّ سنويّ، يظهر على أنّه المُترجِم غير المُبدع الذي يعتقده لاسنر. يُشير سرد الرّوايات وذكر الحوادث والأحداث إلى أنّ الطّبريّ اقتصر على جمع الأحداث وسردها في عمله مع روايات شهود عيان آخرين، وأنّه هو نفسه لم يروِ قصّة واحدة.

يمكنني المُجادَلة هنا، والقول بأنّ التّاريخ برغم كونه المظهر الخارجيّ لقائمة جافّة من الأحداث، إلّا أنّه يحتوي بشكل عامّ على عناصرَ مرتبطةٍ بشكل عامّ بالسّرد الكامل، مثل التّرقّب والمأساة. بعد تعريف هذه المصطلحات، سأقوم بتحليل ثلاثة أحلام سردها الطّبريّ في ثلاث روايات تاريخيّة متتالية تتعلّق بوفاة ثلاثة خلفاء عبّاسيّين. تتمثّل أدوارها في: التّنبيه، والسّخرية الدّراميّة، والمأساة.

ينشأ التّرقّب حينما يكون هناك اختلاف في المعرفة بين القارئ والرّاوي والشّخصيّات. الشّكل الأكثر شيوعًا للتّرقّب هو حين يتساءل القارئ: ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ وللحفاظ على اهتمام القارئ بهذا السّؤال وبناء التّرقّب تدريجيًّا، يمكن للرّاوي أن يذكر تلميحاتٍ خفيّةً تُشير إلى ما يمكن أن يحدث لاحقًا في القصّة، وهي عمليّة تُسمّى التّنبيه.

في حالة التّنبّؤات مثل الأحلام التّنبّؤيّة، يتمّ إعطاء القارئ أو الشّخصيّة تلميحًا لِما قد يحدث لاحقًا. يُثير مثل هذا التّوقّع الأسئلة الآتية: ماذا يعني المُتوقَّع، وهل أنّه لا مفرّ منه؟ كيف ستتفاعل الشّخصيّة مع هذه الأسئلة؟ هل سيُصدّق ويفهم التّنبّؤ؟ هل سيقبل مصيره أم سيحاول الهروب منه؟ يُظهر مثل هذا التّوقّع، وجميع الأسئلة التي يطرحها، نمطًا من التّشويق ينتهي عند تحقيق التّوقُّع والإجابة على هذه الأسئلة. وحين يتمّ ذكر التّنبّؤ في الحُلم، قد يُحدِث إنذارًا إضافيًّا. وفي حالة معظم التّنبّؤات، فإنّ النّمط المألوف يكون على شكل فأل أو نذير شؤم. على سبيل المثال: كوكبة معيّنة من الأجرام السّماويّة في حالة التّنجيم، أو شكلُ السِّرْبِ في حالة الطّيور. العلاقة بين هذا النّمط المُحدّد ومعناه غامضة بشكل عامّ، تمامًا مثل العلاقة بين الكلمات ومعانيها في اللّغة: يجب تعلّم هذه المعاني التي لا يعرفها إلّا المُترجِم الماهر. أمّا في حالة الأحلام، فإنّ الفأل يتكوّن من (سلسلة) من الصُّوَر. في الرّوايات العربيّة الفصحى، العلاقة بين هذه الصُّوَر ومعناها مجازيّة: صورة الحُلم والمعنى يتشاركان في عنصر مشترك. حقيقة أنّ صور الأحلام مجازيّة تعني أنّها تحتوي على تلميح خفيّ لتفسيرها. حتّى مُفسِّر الأحلام المُبتدِئ يمكنه أن يُجرّب نفسَه في اقتراح تفسيرات مُحتملة. وفقًا لكانوفا، فإنّ هذا يزيد من مشاركة المُستمع والقارئ في القصّة. معنى هذه الأحلام شفّاف نسبيًّا. ربّما يكون هذا بسبب رغبة الكاتب في إثارة الفضول ومشاركة المُستمع (أو القارئ)، ممّا يُحفّزه على تجربة التّفسير قبل التّوضيح

والإعلان عن نتيجة الحُلم[١٨].

يمكـن للمرء أن يقـول إنّ صور الحُلم، لكونها مجازيّةً، تُشكّل نذيرًا أو تنبيهًا عند تفسيرها. يتمّ إنشـاء نوع مُعـيّن من التّرقّب من خـلال المفارقة الدّراميّـة. في حالـة التّنبّـؤات، تحـدث المفارقـة الدّراميّـة حين يفهم القارئُ التّنبّؤَ بشـكل أفضل من الشّـخصيّة، أو حـين يعرف القـارئُ بالفعل كيف ستنتهي الأشياء، وكيف سيتحقّق التّنبّؤ.

مـن الصّعـب إعطاء تعريف دقيق للمأسـاة، حيـث تطـوّرَ معنى هـذا المفهوم، ولكـن يمكننا إدراج عدد من العناصر التي يُعتقد أنّها تُسـهم في إضفاء الجانب المأساويّ على القصّة:

١. البطل هو مَلِك يواجه سـقوطه: يموت أو يفقد مكانته الرّفيعة.

٢. إنّه لا يستحقّ هذه النّهاية تمامًا: فالبطل ليس طاغيةً شرّيرًا بل شـخصيّة نبيلة، ولكن لديه عيب مأسـاويّ يمنعه من فهم الحقيقة، أو يؤدّي به إلى القيام بأفعال خاطئة.

٣. في مرحلـةٍ مـا مـن القصّـة، تحـدث «لحظـة الحقيقة»[١٩]. يتعرّف البطلُ على الهويّة الحقيقيّة لشـخصيّة أخرى، فيتعرّف على الخلل المأسـاويّ الذي منعه من رؤية الحقيقة في وقت سابق.

٤. مصـير البطل، سـقوطه، لا مفرّ منـه. كلّ ما يفعلـه للهروب منه يكـون عبثيًّـا؛ لأنّ الإجراءات التي يتّخذها لتأجيل مصيره تُسـهم في الإسراع في نهايته.

مـع وضـع هذه التّعريفات للإنـذار، والمفارقة الدّراميّة، والمأساة في الاعتبار، سأقوم الآن بتحليل ثلاثـةِ أحلامٍ مـن ثلاثِ روايـاتٍ تتنـاول حوادثَ وَفَيَـات ثلاثةِ خلفاءَ عبّاسـيّين، الهادي والرّشـيد والأمـين. تبتـدأ كلّ رواية عن حادثـة الوفاة بهذه المقدّمة «في هذه السـنة، مـات الخليفة العاشر»، يعرف القارئ منذ البداية أنّ البطل سيموت، لكنّه يظـلّ غير مـدرِك للظّروف الدّقيقـة التي أدّت إلى وفاة الخليفة.

حلم المهديُّ بصولجانَيْن تنمو فيهما الأوراق[٢٠]:

أصدر الخليفة المهديُّ أمرًا يقضي بأن يخلفه اثنـان من أبنائـه: أوّلًا ابنه الأكبر مـوسى، ثمّ يليه أخوه الشّـقيق هارونُ. وبعد وفـاة المهديّ، وحين أصبـح مـوسى خليفـةً واتّخـذ لقب «الهـادي»، حاول تغيير وصيّة والـده. وأراد موسى الاحتفاظَ بالخلافة داخل فـرع عائلته الصّغيرة فقط، لذلك حاول إبعادَ شـقيقِه هارونَ مـن الخلافة، واتّخذ التّرتيبـات اللّازمة لنقل الخلافة إلى ابنه جعفر بن موسى. ولتحقيق ذلك، قام موسى، على وفق بعض

(١٨) كانوفا، فونزيوني، ص. ١١٨- معنى هذه الأحلام شفّاف نسبيًّا، وربّما يرجع ذلك إلى رغبة الشّاعر في إثارة الفضول والمشاركة مع المستمع (أو القارئ)، من خلال حثّه على محاولة تفسيرها بنفسه، قبل أن يُفشي الشّاعر التّفسير على يد المفسّر الرّسميّ .

(١٩) «حول علم التّشخيص في الأدب العربيّ»، يُنظَر: دراسات فيليب كينيدي.

(٢٠) يُنظَر أيضًا: يوهان فيستسْين، «الخلفاء العبّاسيّون والأنبياء التّوراتيّون:استخدام الأحلام في كتاب الطّبريّ» تاريخ الرّسل والملوك، في: «تاريخ العصور الوسطى»،تحرير أي كوبر، امستردام، ٢٠٠٦، ص ١٩١-٢٠٢.

الرّوايات بسجن شقيقه هارونَ. ولكنّه تُوفّي فجأة وفي ظـروف غامضـة بعد أقلّ من عـام من تولّيه الخلافة، بينمـا كان يحاول إكمال مراسـم نقلها إلى ولده[٢١]. وتردّدت شـائعات بأنّه قُتِل بأمرٍ من والدته؛ لأنّها خشـيت من تصرّفاته التي سـتمنع ابنها هارونَ من الوصول إلى الخلافة.

يُقدِّم الرّاوي الرّئيسُ في هذه المرحلة من تسجيل الأحداث، الموضوعَ الذي يتعلّق بموت الهادي. وفي وصـف الوفاة المطوّل نسـبيًّا، نجد، من بين عديد من الأخبار، روايةً لشـاهد عيـان يعمل خادمًا في القصر[٢٢]. تُعدّ هذه الشّهادة بمثابة تذكير بالأيّام الأولى لخلافـة الهـادي. يـروي خـادمُ القصر أنّه لاحظ غضب موسى الهـادي من أخيه هارونَ، لأنّ الأخـير كان يعتقد أنّ حُلمًا مُعيّنًا سـيتحقّق وأنّه سيُصبح يومًا ما خليفة أيضًا. قال موسى بسخرية إنّ «دون ذلك خرط القَتاد». يستمرّ خادم القصر بالقول إنّه سأل هارونَ عن هذا الحُلم الذي اختلف الشّـقيقان فيه. فـردّ هارونُ بقصّـةٍ عن والدهما المهـديّ. حـين كان المهديّ خليفةً: «قـال المهديّ: أُريـتُ في منامـي كأنّـي دفعتُ إلى مـوسى قضيبًا وإلى هـارونَ قضيبًـا، فأَوْرَقَ مـن قضيب موسى أعـلاه قليلًا، فأمّا هارونُ فـأورقَ قضيبُه من أوّله إلى آخره. فدعا المهديُّ الحَكَمَ بن موسى الضّمريّ- وكان يُكنّى أبا سفيانَ- فقال له: عَبِّر هذه الرّؤيا، فقال: يملكانِ جميعًا، فأمّا موسى فتقلّ أيّامُه، وأمّا هارونُ فيبلغ مـدى ما عاش خليفة، وتكون أيّامُه أحسنَ أيّامٍ، ودهره أحسنَ دهرٍ»*.

هنـا يفهم القـارئ الفَطِنُ أنّ الـشّرح الذي قدّمه المُفـسِّرُ غيرُ كامل، لأنّ الكلمة العربيّة المُسـتخدمة هنـا للقضيب تحمل أيضًا معانـيَ يتعلّق بعضها بالنّسـل (الذُّرّيّـة). فالقضيـب لا يرمـز هنـا إلى الصّولجـان فحسـب، بل يعنـي أيضًـا «العضو الذّكـريّ» أو«الفـرع»، ممّـا يُوضّـح أنّ كِلا الصّولجانـين اللّذين قدّمهمـا والدهما إلى هارونَ وموسى هما فرعان من شـجرة العائلة العبّاسيّة. وفـرع هارونَ يحمل ثِمارًا، لذلـك فإنّ هارونَ لن يحكـم لمدّة أطـول من أخيـه الأكبر فحسـب، بل ستبقى الخلافة في الواقع، بين ذُرّيّته «حتّى نهاية الأيّام»[٢٣].

لذلك فإنّ الحُلمَ لا يُنبئ أنّ هارونَ سـيُصبح خليفة فحسب، بل يعني أنّ جهود موسى لحرمان شقيقه من حقّه بالخلافة سـتذهب سُدًى، ويتنبّأ أيضًـا بـأنّ الخلافة سـتبقى إلى الأبد بـين أحفاد هـارونَ، ممّا يعني أنّ جهـود موسى للحفاظ على

(٢١) يُنظَر أيضًا: ريتشارد كيمبر،«خلافة الخليفة «موسى الهادي»»، مجلّة الجمعيّة الشّرقيّة الأمريكيّة ١٢١ (٢٠٠١): ٤٢٨.

(٢٢) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، تحرير. M. J. de Goeje et al» III، ليدن، بريل، ١٨٧٩-١٩٠١، ص ٥٧٦-٥٧٧.

* [اقتُبِس هذا النّصّ من الطّبعة العربيّة المُحقّقة لتاريخ الطّبريّ «تاريخ الرّسل والملوك» (بتحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم). وكذلك الحال في موضعين لاحقين يسردان حُلْمين للخليفتين العبّاسيّين الرّشيد والأمين- المُترجم].

(٢٣) مفاهيمُ إسلاميّةٌ بخصوص وقت آخر الزّمان وعلاماته، أمستردام: نورد هولاندشه، ١٩٤٢، ص ١٧١ و١٧٦. يُنظَر أيضًا: الثّورة، لانسر، ص ٢٣:

الخلافــة لفــرع عائلته، بــدءًا من ابنــه جعفر بن موسى، ستذهب سُدًى أيضًا.

يفهــم القارئ أنّ موسى كان يُحاول منع حُلْمِ والدهما من التّحقّق والاكتمال- ربّما بدافع الغيرة والخوف من أنّ شــقيقه الأصغــر، إذا نجح في أن يُصبح الخليفة، فإنّه ســيحكم لمــدّة أطول وأكثر نجاحًا. لكــنّ الإجراءات التــي اتّخذها موسى لمنع تحقيــق هــذا الحُلم، وطمس حقّ هــارونَ في تولّي الخلافــة ونقلهــا مباشرة إلى ابنه جعفــر، أدّت به إلى التّعجيل بتحقيق مصيره المأساويّ؛ لأنّ ما قام به موسى ضدّ هــارونَ لصالح ابنه جعفر، أجبرت مؤيّدي هارونَ على قتل موسى.

وعند العودة إلى المَثل الذي ذَكر شــجرَ القَتاد الشّــائك وصعوبــة إزالة أشــواكه، تتّضح مفارقة ســخرية مــوسى الــذي ضربَ المَثَــلَ القائل «دون ذلك خرْط القَتاد». ففي هذا التّعبير، ترمز أشواك الشّــجيرة إلى اســتحالة وصول هــارونَ للخلافة، بينمــا ترمز الأوراق في الحُلم إلى عكس ذلك تمامًا: اذ أصبح هارونُ خليفةً وكذلك أحفاده. وبالتّوسّع في فهــم هــذه الجدليّة، مــن الممكــن أن نقترح أنّ «تجريــد القَتاد» هــو ما فعله هــارونُ: من خلال تجريــد فرع موسى من أوراقه – قتل موسى، ومنع جعفــر بن موسى من أن يُصبح خليفةً- وتنصيب هارونَ نفسه على الخلافة.

بعــد أن سرد هــارونُ حُلــم المهــديّ، يختتــم خــادمُ القصر قصّتــه باســتنتاج أنّ الهادي مات ولم يخلفــه ابنُه جعفر بن موسى، بــل إنّ هارونَ أصبــح خليفتــه. في وقت لاحق من متابعة ســجلّ الأحــداث يعلم القارئ أنّ هــارونَ حكم لمدّة ثلاثة وعشرين عامًا باسم «الرّشيد»، وأنّ الخلافة ظلّت في عائلتــه. وخلَف الرّشــيدَ أبناؤه الثّلاثــةُ: الأمينُ والمأمــونُ والمُعتصِمُ. ومن صُلــب هذا الابن الثّالث ينحدر كلُّ الخلفاء العبّاسيّين اللّاحقين.

الرّشيد يحلم بحفنةٍ من الأرض الحمراء

في أحد المواضيع التي تتناول خلافة الرّشــيد، تقــول مُدوّنــةُ الطّــبريّ لقُرّائهــا أنّ الاضطرابات اندلعت في مقاطعة خُراسانَ الشّرقيّة، وأنّ الرّشيد قرّر الذّهاب إلى هناك لأخــذ زمام الأمور وإبقائها في يــده[٢٤]. وفي تفاصيلَ لاحقةٍ، قيل لنا أنّ هارونَ مــرض أثناء هذه الرّحلة وأنّــه اضطرَّ إلى التّوقّف في مدينة طوس[٢٥]. إنّ المدخل الآتي هو ذكر وفاة هارونَ، الــذي يتناول حدث وفاة هذا الخليفة[٢٦].

بعد القول «في هذه السّنة، مات هارونُ الرّشيد » فــإنّ أوّل اقتبــاس قام بــه راوي الخــبر الرّئيس هو شــهادة شــاهد عيان ذكرها طبيــبُ هارونَ، تبــدأ بذكر الأحــداث الماضية التي ســبقت اندلاع الاضطرابات في خراســانَ. أفاد الطّبيــبُ فيها أنّه وجد الخليفة ذات صباح في مزاج سيّء وســأله عن صحّته. أجاب الخليفة أنّه كان قد رأى رؤيا، فقال الطّبيــب المُعالِج: «أهذا الغمُّ كلّــه لرؤيا! إنّما هي أضغــاث أحلام ». قال الخليفــة: « فأقصُّها عليك. رأيــتُ كأنّي جالسٌ على سريريَ هــذا، إذ بدت من تحتــي ذراعٌ أعرفُها وكــفٌّ أعرفُها، لا أفهم اســمَ صاحبهــا، وفي الكــفّ تُربةٌ حمــراءُ، فقال لي قائلٌ

(٢٤) الطّبريّ، تاريخ، جزء ٣، ص. ٧٣٠.

(٢٥) الطّبريّ، تاريخ، جزء ٣، ص ٧٣٣-٧٣٤.

(٢٦) الطّبريّ، تاريخ، جزء ٣، ص ٧٣٥- ٧٦٤.

أسـمعُه ولا أرى شـخصَه: هذه التُّربةُ التي تُدفَنُ فيها، فقلتُ: وأين هذه التُّربة؟ قَالَ: بِطُوْس. وغابتِ اليـدُ وانقطعَ الـكلامُ، وانتبهـتُ.«ردّ الطّبيبُ»: يا سيّدي! هذه واللهِ رؤيا بعيدة مُلتبسة.. فلا تحفَلْ بهـا جعلنـي اللهُ فِـداك! وأتبع هذا الغـمَ سرورًا، يُخرجُه من قلبك لا يُولّد عِلّةً».

المفارقـة الدّراميّـة هنا هـي أنّ القارئ يعرف من السّرد الذي سـبق ذِكْره أنّ هارونَ سـيمرض في طُـوْسَ لكي يحتوي الحُلم على بعض الحقيقة. إنّ النّصيحة بعدم الإيمان بالأحلام وتجاهلها على أنّـه لا معنى لها، هي نصيحة سـيّئة، وأنّ هارونَ مُخطـئ في القبول بهـذه التّوصيـة (أي أنّها غير حقيقيّـة ولا معنى لها). وبمـا أنّ الطّبيب يمتنع عن تفسير الحُلْم، فقد يبدأ القارئ نفسُه في البحث عن بعض التّفسـيرات المجازيّة للصّورة الغريبة. صورة لحفنة من تراب القـبر الحمراء. قد يتذكّر القارئُ، المُطّلِـعُ جيّدًا، رؤيا النّبـيّ محمّد [ﷺ]، التـي لـم يُدوّنها الطّـبريّ على صفحـات تاريخه ولكنّها موجودة في عديدٍ من كُتب الحديث النّبويّ، والتي تسرد حلم النّبيّ محمّد [ﷺ] ذات ليلة، بأنّ جبرائيل أظهـر له حفنةً من تُرابٍ أحمرَ، وذكر له أنّ هذه هي الأرض التي سـيُقتل حفيده الحُسَـينُ فيهـا. كانـت الأرض في حلم النّبـيّ محمّد [ﷺ] والتـي أظهرها جبرائيـلُ حمـراءَ لاختلاطها بدم الحُسَينِ الشّهيد[٢٧].

ويسترسـل الطّبيب في سرد قصّته مع الرّشـيد بالقـول «ومرّت الأيّامُ فنسيَ، ونسـينا تلك الرّؤيا، فمـا خطرتْ لأحـد منّا ببـال، ثمّ قُدّر مسـيره إلى خُراسـانَ حين خـرجَ رافعٌ، فلمّا صـار في بعض الطريـق، ابتـدأت به العِلّة، فلم تـزل تتزايد حتّى دخلنـا طُـوْسَ، فنزلنا في منـزل الجُنيـد بن عبد الرّحمـن في ضيعةٍ لـه تُعرف بسـناباذ، فبينا هو يمـرض في بسـتان له في ذلك القـصر إذ ذكر تلك الرّؤيا، فوثب مُتحامِلا يقومُ ويسـقطُ، فاجتمعنا إليه، كلٌّ يقول: يا سـيّدي ما حالـك؟ وما دهاك؟ فقـال: يا جبريل، تذكر رؤيـايَ بالرّقّة في طُوْسَ؟ ثمّ رفع رأسه إلى مسرور [خادمه المَخصيّ]، فقال: جِئني من تُربة هذا البستان، فمضى مسرور، فأتى بالتُّربـة في كفّه حاسرًا عن ذراعـه، فلمّا نظر إليه قال: هذه واللهِ الذّراع التي رأيتُها في منامي، وهذه والله الكفُّ بعينهـا، وهذه والله التُّربة الحمراء ما خُرمت شـيئا. وأقبل على البكاء والنّحيب، ثمّ مات بها واللهِ بعد ثلاثةٍ، ودُفن في ذلك البستان».

إنّ اللّحظـة التـي يتذكّـر فيها هـارونُ حُلْمَه ويتعرّف على اليد التي رآها فيه على أنّها يدُ خادمه مـسرور، ويفهم التّأثير الكامـل للتّنبّؤ، هي مثال عـلى عدم التّشـخيص بالمعنى الكامـل للكلمة. لا يُـدرك البطل فقـط الهويّة الحقيقيّة للشّـخص- فهو يدرك الآن أنّ الذّراع التي رآها في رؤياه كانت ذراع شـخص كان في مصاحبتـه طـوال الوقت- ولكنّـه أيضًا يفهـم طبيعة عيبه المأسـاوي: عدم الاهتمام بحلمه. في الوقت نفسـه الـذي يُفهم فيه القارئ أنّ هذه الشّخصيّة سمحت لنفسها بإدارة الأمور بشـكل خاطئ، يفهم أنّه قد تمّ توجيهه في

(٢٧) أ. فنسنك، المُعجم المُفهرَس لألفاظ الحديث النّبويّ، ليدن: بريل، ١٩٢٣، ص. ٩٤: أحمد بن حنبل، المسند، جزء١، القاهرة: الميمونيّة، ١٣١٣/١٨٩٥، ص. ٨٥؛ الثّالث، ص ٢٤٢، ٢٦٥.

الاتجاه الخاطـئ أيضًا. نظـرًا لأنّ معظم الأحلام في تاريخ الطّـبريّ، التي تحتوي على صور رائعة، يبـدو لاحقًا أنّ لها معنًى رمزيًّـا، فمن المُرجّح أن يبحث القارئُ عن تفسـير رمزيّ للصّورة الغريبة لحفنةٍ مـن الأرض الحمراء. في هـذه الحالة، فإنّ مثل هـذا البحـث يذهب سُـدًى. وعنـد مواجهته بتحقُّـق الحُلم، يفهم القارئُ أنّ هذا الحُلْمَ لم يكن رمزيًّا، بل حرفيًّا: فمـا ظهر في الحُلْمِ حدث لاحقًا في الواقع بالضّبط.

عـلاوة عـلى ذلـك، كان يُنظَر إلى هـذا التّحقّق الفعـليّ للرّؤيا عـلى أنّه علامة على صـدق الأحلام التي يُمكـن أن تُقنِعَ حتّى أكثر المُشـكّكين عنادًا. ويظهر هذا من خلال الحكاية الآتية: كان الخليفة المأمون، مِثل طبيب الرّشيد، يعتقد أنّ كل الأحلام هـراء. فحلم في أحـد الأيّام بشيء حـدث لاحقًا في الواقـع تمامًا كما حدث في رؤياه، ومنذ ذلك اليوم والأيّام التي بعدها، لم يعد المأمون يشكّ في حقيقة الأحـلام[٢٨]. ولذلـك فـإنّ التّحقّـق الحـرفيّ لحلم الرّشـيد هو دليل إضافيّ، لا ريب فيه، على صدقه: وهذه هفوة أخرى بسبب نصيحة الطّبيب السّيّئة وقرار الرّشـيد الأسـوأ في قبولها وتجاهل تفسـير رؤياه.

في الوقت نفسـه، يُشبه حُلْمُ الرّشيد حُلْمَ النّبيِّ محمّدٍ [ﷺ] بالأرض الحمراء، التي تتعلّق بحادثة قتل سـبطه وقطع رأسـه. من خلال هذا التّشابه، يُنـذِر حُلْمُ الرّشـيد بأحـداثٍ تمّـت معالجتها في مواضيـعَ لاحقةٍ: الحرب الأهليّة بين ابني الرّشـيد التـي سـتندلع بعد وفـاة الخليفة، وسـتؤدّي إلى قطـع رأس ابن الرّشـيد، الأمين، على يد شـقيقه. تمامًا كما أنّ حُلْمَ المهديّ لا يُنذِر بما سيحدث بعد وفاة الهادي فحسـب، بل يتنبّأ أيضًا بما سيحدث بعد وفاة الرّشـيد، كذلك فإنّ حُلْمَ الرّشيد لا يتنبّأ بمكان موته فحسب، بل يُنذِر أيضًا كيف سيموت الخليفةُ القادمُ، الأمينُ.

حُلم الأمين بسقوط عمامته

كان هـارونُ الرّشـيدُ، الـذي أراد منع حصول منازعـات بين أبنائه حـول موضوع الخلافة، كما حصل له مع شقيقه موسى من خلافٍ بسبب الأمر نفسه، قرّر تقسيمَ الإمبراطوريّة بين وَلَديه. فعيّن ابنه محمّدًا من زوجتـه الأثيرةِ زُبيدةَ (وهي امرأة عربيّة حرّة من بني هاشم) حاكمًا في بغدادَ، ولُقِّب هذا الابنُ بـ «الأمين». أمّا الأخ الأكبر غير الشّـقيق للأمين، عبد اللّه (وهو ابن جارية فارسيّة، وأصبح فيما بعد يُعرف باسـم المأمـون)، فقد عيّنه والده الخليفةُ حاكمًا في خراسـانَ. كانت هذه الإجراءات غير ذات جدوى في حفظ الاستقرار السّياسيّ حين اندلعت حربٌ أهليّةٌ واسعةُ النّطاق بين الابنين بعد وفاة والدهما.

كان قائدان تابعان للمأمون يُحاصران بجيشٍ كبيرٍ الأمينَ ببغدادَ، وهما طاهر وهرثمةُ. وتعرّضت بغـدادُ للقصف بآلات الحصار حتّى عجز الخليفةُ محمّـدٌ الأمينُ عـن الدّفـاع عن مركـزه. في الجزء

(٢٨) البيهقيّ، المحاسن والمساوئ، تحرير. شوالي، جلسن: ريكر، ١٩٠٢، ص. ٣٤٣؛ ونقلت أيضا عن فهد، الحُلم، ص ٣٥٤-٣٥٥، والحبري، إعادة تفسير، ص. ١١٠.

الخاصّ بوفـاة الأمين[٢٩]، ذُكرت رواية، رواها ابنُ أحـد مستشـاريه، وكان مُرافقًـا له وشـاهدًا على أيّامـه الأخيرة; يُخبِر فيها أنّ الأمين نُصِح باختراق الحصار والفرار إلى سوريا وتأسيسِ جيشٍ جديدٍ هنـاك. وحين سـمع طاهـر، قائد الجيـش وعدوّ الأمين، بخطّة الهروب رشا بعض مستشاري الأمين لإقناعـه بالتّخلّي عن الخطّة وتسـليم نفسـه لأحد قائدي المأمون. اقتنع الأمـينُ، وحصل جدلٌ حول أيٍّ مـن القائدين ينبغي أن يستسـلم له الخليفة: طاهر أم هرثمةُ. فضّل بعض المُستشارين طاهرًا، غـير أنّ الأمين أخبرهم أنّـه لا يُحبّذ هذه النّصيحة ولا يشعر بالارتياح حيال طاهر بسبب رؤيا. وقال لهـم: «ويحكم! أنا أكره طاهـرًا، وذلك أنّي رأيتُ في منامـي كأنّـي قائمٌ على حائطٍ من آجُرٍّ شـاهقٍ في السّـماء، عريضِ الأسـاس وثيقٍ، لـم أرَ حائطًا يُشبهه في الطّول والعرض والوثاقة، وعليّ سوادي ومِنطقتي وسـيفي وقُلنسـوتي[٣٠] وخُفّي، وكان طاهر في أصل ذلك الحائط، فما زال يضرب أصله حتّى سـقط الحائطُ وسـقطتُ، وندرت قلنسوتي من رأسي، وأنا أتطيّرُ من طاهر، وأسـتوحشُ منه، وأكره الخروج إليه لذلك».

لـم يتمكّـن الأمينُ من اسـتدعاء مُعـبِّرِ أحلامٍ يُؤوِّل له معنى الحُلـم. وكان هذا أمرًا غير حكيم؛ لأنّ الخليفة لم يكن يفهم معنى سقوط القلنسوة، لأنّـه يقول فقط إنّه يشـعر بعدم الارتياح بشـأن طاهر. ومع ذلك، فـإنّ القارئَ المُطّلعَ قد يفهم أنّ سقوط العمامة من رأس شخصٍ ما يعني أنّه على وشـك المـوت. وفي مكانٍ آخرَ من تاريـخ الطّبريّ، فإنّ سـقوط هذه العمامـة الطّويلة هو علامة على الموت الوشيك. فقبلَ معركةِ صِفّينَ، يعبرُ الفرسانُ المُوالون جسرًا فوق نهر الفُرات، وبسـبب التّدافع الذي نتج عن ذلك، تسـقط قُلنسـونا الرّجلين من رأسـيهما. ينـزل الرّجـلان لالتقاطهمـا، وعندها يروي أحدهمـا للآخر; إذا كان ما يقوله المُنجِّمون صحيحًـا، فإنّي سـوف أُقتل قريبًـا وأنت كذلك. بعـد مدّة وجيزة، مات كلا الرّجلين أثناء القتال في معركـةِ صِفّينَ[٣١]. ويبـدو أنّ الخليفة الأمين كان أقلّ بصـيرةً من هذين الفارسَـيْن; لأنّـه لم يُدرك أنّ حلمـه يُنبِئ بأنّه سـيُقتل. لكـنّ الرّؤيا جعلته يشعر بعدم الارتياح لطاهر، لذلك قرّر الاستسلام لهرثمةَ.

بعـد روايـة الأمـين عـن حلمه كمـا رواه ابنُ

(٢٩) الطّبريّ، تاريخ، ٣جزء، ص. ٩١٣.

(٣٠) كانت القلنسوة عبارة عن قُبّعة عالية، وبسبب الموضة، أصبحت طويلة جدًّا بمرور الوقت، لدرجة أنّ الخليفة المُستعين أمر بعد حوالي خمسين عامًا من خلافة الأمين بعدم تجاوز الحدّ الأقصى للارتفاع الرّسميّ: السّيوطي، تاريخ الخلفاء، ترجمة. هـ. جاريت، أمستردام: أوريإنتال، ١٩٧٠، ص. ٢٢.

(٣١) الطّبريّ، تاريخ، جزء ١، ص. ٣٢٦٠ التّرجمة .G R. هوتينغ. يُنظَر أيضًا: شوشان، الشّعراء، ص ٧٠. ضرب شيخ صلاح الدّين على رأسه: وتسقط القلنسوة على الأرض ويخسر معركته التّالية: السّبكي، طبقات الشّافعيّة الكبرى، تحرير. محمود محمّد الطّناحي وعبد الفتاح محمّد الحلو. الجزء السّابع، القاهرة: مكتبة عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٤-١٩٧٦، ص. ١٦؛ نقلا عن ستيفيني مولدر، «ضريح الإمام الشّافعي»، المُقرنصات ٢٣ (٢٠٠٦): ٢٤.

مستشـاره، قـدّم الطّبريُّ روايـةً لراوٍ آخـرَ، ممّا يسـمح للمنظـور بالتّغيّر من معسـكر الأمين إلى معسـكر طاهر; ذكر هذا الـرّاوي الثّاني أنّه حين تلقّـى طاهـرٌ نبأ قرار الأمين بتسـليم نفسـه مع ضُبّاطـه إلى هرثمةَ، شـعر بالغـيرة. من الواضح أنّ طاهرًا كان يرى أنّ تنازل الخليفة رسـميًّا عن منصبه يجب أن يكون له، وليس لخصمِه هرثمةَ. فنصب طاهرٌ كمينًا في اللّيل، وحين أرسـل هرثمةُ قاربًـا لإحضار الأمين، صعـد الخليفـةُ وضُبّاطُه القـاربَ، لكـنّ رجال طاهـر رموهـم بالحجارة. فغـرق القـارب وسـقط الأمـينُ في دجلـةَ، فقام بالسّـباحة إلى الضّفـة الخطـأ مـن النّهـر، حيث أُسِرَ وحيـدًا مُبلَّلًا، وسـارع رجـالُ طاهر إلى قتله وقطعِ رأسـه. إنّ عيب الأمـين الكبير هنا يتمثّل في استشـارته رجالًا غير مخلصين، فشـلوا في تفسير حُلْمه، وعدم فهم التّأثـير الكامل للحُلْم، ومحاولة الهـروب من مصيره المتوقّع، وقراره بالاستسـلام إلى هرثمـةَ خوفًا مـن طاهر الـذي دفعه مباشرة إلى ذراعي الأخير: فبدلًا من الاستسـلام الرّسـميّ بصحبة ضُبّاطه، قُبِض على الأمين مُنفردًا، وأُعدِمَ على الفور. وثبت الآن أنّ سـقوط عمامته الطّويلة كان معناه قطع رأسه.

ثلاثُ قواعدَ مأساويّة

في الختـام، يُمكننـا القـول إنّ الأحـلام في ذكر حالات الموت الثّلاث هذه لها التّأثير الآتي:

إنّهـا تحوّل موت الخلفـاء العبّاسـيّين الثّلاثة إلى سـقوطِ أبطالٍ مأسـاويّين. يموت الخلفاء الثّلاثة قبـل الأوان: الهادي بحسـب الشّـائعات يُقتل في سـنٍّ مُبكّرةٍ. يموت الرّشـيدُ نتيجة مرض أُصيب به أثناء سـفره، ويُقطَع رأسُ الأمـين. أمّا الهادي والأمين، الخليفتان اللّذان ماتا على نحوٍ مأساويّ، فإنّهما لم يفقدا حياتهما فحسـب، بل فشلا أيضًا في توريث الخلافة لابنيهمـا. ومع ذلك، فإنّ هؤلاء الحُـكّام العبّاسـيّين ليسـوا أشرارًا مثـل الطُّغاة الوثنيّـين، مثل فرعونَ أو الأمويّـين، الذين يلقون عقابهم المُستحقّ بعد عهد الطّاعة العمياء والقمع. لدى الهادي والرّشـيد والأمين عيبٌ مأساويّ واحد فقـط، والذي ينزل في الحـالات الثّلاث جميعها إلى نفس العيب: عدم القدرة على التّعامل مع الحقيقة التي تكشفها لهم الأحلام:

- يرفض الهادي تصديقَ أنّ حُلْم والده سيتحقّق.
- يسمح الرّشيدُ لنفسه أن يقتنع بأنّ حُلْمه باطلٌ، فينساه.
- يُخفِـق الأمـينُ في تفسـير حُلْمه على يـد مفسّر أحلام، فلا يُدرك، من ثمّ، تأثيره الكامل.

علاوة على ذلك، فشلت الشّخصيّات الثّلاث في قبول المصـير الذي أنبأتهم به معانـي هذه الأحلام. كما كان للإجراءات التي اتّخذها هؤلاء الخلفاء الثّلاثة لتأجيل مصيرهم أو تجنّبه أو تجاهله، آثار عكسيّة تمامًـا: فبدلًا من إطالة حياتهـم، أدّت أفعالهم إلى تقصيرها وجعلها أكثر مأساويّةً:

فجهود الهادي لمنع أخيه هارونَ من أن يُصبح خليفةً وتعيين ابنه وليًّـا للعهد، جاءت على عكس مـا تمّ التّنبّؤ به في الحُلم، بوضع حدّ لهذه الجهود من خلال إنهاء خلافة الهادي نفسه قبل الأوان.

ويسـمح هارونُ الرّشيدُ لنفسـه بالاقتناع بأنّه يجب أن ينسى حلمه خشية أن يُصيبه القلق، ولأنّه نسي حلمه، يشرع بشـكل أعمـى في رحلة المرض

المُميت الذي تتسبّب في وفاته.

أمّا الأمينُ، ومن خلال الاستسلام لهرثمةَ من أجل الهروب من الإذلال الذي قد يلقاه على يد طاهر- كما أعلن في حلمه- يُثير غيرة طاهر ويدفعه للقيام بقطع رأسه على الفور.

على الرّغم من أنّ الرّشيدَ يُلاقي نهايته قبل الأوان، فإنّه يبقى الحاكم الوحيد الذي لم يمت ميتة قاسية، والذي ترك الخلافة لأبنائه. إنّه أيضًا الخليفة الذي نعمَ بلحظةٍ من الغموض، حيث أدرك عيبَه المأساويّ والمعنى الكامل لحلمه.

مثلما تُعدّ الأحلام أساسيّةً في الكشف عن العيوب المأساويّة وفي إثارة السّلوك المأساويّ لهذه الشّخصيّات، فإنّها تلعب دورًا أساسيًّا في خلق تناقض خاصّ في المعرفة بين القارئ والشّخصيّة تنتج عنه مفارقة دراميّة: ففي حالة الهادي والأمين، يظهر لدى القارئ اليقظ فهم كامل لمعنى الحُلْم أكثر ممّا لدى الشّخصيّات التي رأت الحُلْمَ في المنام، وفي حالة الرّشيد يعرف القارئ أنّ على الخليفة ألّا يتجاهل حُلْمه وينساه:

في حالة الهادي، يفهم القارئ أنّ الفرع المُغطّى بأوراق الشّجر لا يعني فقط أنّ هارونَ سيحكم لمدّة أطول فحسب، بل إنّ الخلافة ستبقى حصريًا بين نسل الأخير.

في حالة الرّشيد يعرف القارئ من الذّكر السّابق أنّ الخليفة سيمرض في المدينة الشّرقيّة من طُوْسَ. مع وضع هذه المعرفة في الاعتبار، يُشاهد القارئ أنّ الشّخصيّات تتعثّر في الظّلام وتتخذ قرارًا سيّئًا تلو الآخر: من النّصيحة بتجاهل الحُلم، لئلّا يؤدّي القلق بشأنه، إلى مرض الخليفة- من المثير للسّخرية أنّ الخليفة سيمرض لأنّه تجاهل حُلْمه- إلى القرار اللّاحق بالسّفر شرقًا.

وفي حالة الأمين، يفهم القارئ أنّ سقوط عمامته يعني أنّ الخليفة سيُقتل وأنّ هذا الأخير يجب أن يشعر بعدم الارتياح تجاه طاهر.

أخيرًا، يمكننا أن نُلاحظ أنّ المفارقة الدّراميّة تكون أقوى لدى القارئ الذي يتمتع بمعرفةٍ أكثر ممّا كشفه الرّاوي، والمُطّلع بالفعل على المسار العامّ للأحداث التي تُحيط بالسّقوط المأساويّ لهؤلاء الخلفاء: خلافة الهادي لهارونَ؛ الحرب الأهليّة التي تلت ذلك؛ قطع رأس الأمين وخلافة المأمون.

أحلامُ بني العبّاس: العناصر الوظيفيّة في تاريخ الطّبريّ

من خلال تقديم أحداث وَفَيَات الخلفاء العبّاسيّين الثّلاثة، التي تهدف إلى وضع رأي نهائيّ عن حياتهم، بكونهم حُكّامًا اخطأوا بشكل مأساويّ، وأغمضوا أعينهم عن النّبوءات التي تناهت إلى علمهم. كيف يمكن التّوفيق بين هذه الصّورة والدّعاية المُؤيّدة للعبّاسيّين؟ قد يُجادلُ المرءُ بأنّ صورة السّلوك المعيب للهادي والأمين كانت نتيجة الدّعاية لصالح منافسيهما داخل الأسرة نفسها، أي الدّعاية لصالح أخويهما (الرّشيد والمأمون على التّوالي). ومع ذلك، يُصوِّر الرّشيدُ نفسَه أيضًا على أنّه حاكمٌ خالٍ من كلّ العيوب البشريّة. لذلك، لا يمكن أن تكون الدّعاية هي الغرض الوحيد من الرّوايات عن هؤلاء الخلفاء. أُنشئت هذه الرّوايات، ومن ثّم اختارها الطّبريّ لتاريخه، لإثارة إعجاب القُرّاء باستخدام

أدوات أدبيّة عريقة: التّرقّب، وكمّيّة معيّنة من السّخرية، وعنصر قويّ من المأساة. قد تكون فرضيّة لاسنر- القائلة بأنّ بعض الرّوايات التي تتناول سيرة العبّاسيّين أُنشِئت في الأصل للدّعاية- جزءًا من الحقيقة. يمكن أيضًا تقديم حقيقة أنّ تاريخًا مثل تاريخ الطّبريّ لا يحتوي على حلم واحد لخليفة أمويّ، تكون حُجّةً تُؤيّد الرّأي القائل بأنّ هذه الأحلام قد وُظِّفَت من أجل الدّعاية للخلفاء العبّاسيّين.

أمّا أطروحة لاسنر القائلة بأنّ المُؤلّفين أمثال الطّبريّ، الذين أدرجوا هذه الرّوايات في أعمالهم، لم يكونوا أكثر من جامعين غير مُبدعين، وأنّهم لم يفهموا بأنّ هذه النّصوص غير حقيقيّة، فإنّ من المُسَلّم به، للنّاظر السّطحيّ، أنّ تاريخ الطّبريّ يتميّز- بوصفه فهرسًا للأحداث- بأنّه قائمة من الأحداث غير المترابطة. ومع ذلك، أظهر تحليل الوظيفة السّرديّة للأحلام الثّلاثة التي جرى تناولها في هذه المقالة أنّ الأحلام قد استُخدمت لتجاوز بنية الفهرس هذا، من خلال إنشاء روابط لمُدخلات أخرى، والأهمّ من ذلك، من خلال تزويدها بخلفيّة من التّرقّب والمأساة.

تُستخدم روايات الأحلام في تأريخ الطّبريّ- حتّى لو كانت من أجل الدّعاية أو أنّها إحدى وظائفها الأصليّة- من أجل رواية قصّة، آسرة ودراميّة قدر الإمكان.

****

عنوان البحث:

Dreams of Abbasid Caliphs: Suspense and Tragedy in al-Tabari's History of Prophets and Kings.

الكاتب:

Johan Weststeijn, University of Groningen

المصدر:

Oriens , ٢٠١٠, Vol. ٢٠١٠) ٣٨), pp. ٣٤-١٧

(اورينس، ٢٠١٠، العدد ٣٨(٢٠١٠) صفحة ١٧- ٣٤)

(اورينس: مجلّة الفلسفة وعلم الكلام والعلوم في المجتمعات الإسلاميّة) دار بريل للنّشر.

Stable URL: https://www. jstor. org/stable/٢٣٠٧٢٧٣٤